المبحث الأول

أولًا المفاهيم والمصطلحات

من خلال دراستنا لليهود واليهودية في الفصل السابق توصلنا إلى صغر حجم المجتمع اليهودي الذي انطوى تحت ديانته وما حوته التوراة المزعومة من التضليل الذي يسري تحت رداء التوفيق والتزوير، وعلى الرغم من ذلك فلم تفلح الأعداد المتواضعة لتلك الشريحة بالنجاح في تكوين دولة لها كيانها السياسي أو قوتها العسكرية بين شعوب العالم، وظلت تلك الأقلية اليهودية تعيش تحت سلطة الدول المتعاقبة على استعمار المنطقة واحتلالها.

لكن الذي فاجأ العالم السياسي منه والديني وفي القرن الثامن الميلادي ظهور إمبراطوية لليهود في بلاد ليس لها علاقة بمسرح الأحداث التاريخية والدينية لما يسمى باليهودية، لقد ظهرت مملكة أو إمبراطورية تدين بالديانة اليهودية سميت (بمملكة الخزر) [1]، أو إمبراطورية الخزر، وأطلق المؤرخون

(١) الخزر: لغة خزر الرجل يخزر خزرًا نظر بلحظ عينيه وتباهى وهرب، وخزر يخزر خزرًا كسرت عينه بصره خلقة، أو صارت ضيقة وصغيرة، أو نظر كأنه بأحد الشقين، أو كأنه يفتح عينيه ويغمضها، أو كانت إحدى عينيه حولاء فهو أخزر وهي خزراء. وتخازر الرجل ضيق جفونه ليحدد النظر، أو أن يري من نفسه الخزر وليس به، وهو أن ينظر بمؤخرة عينه؛ وذلك كقولهم تعامى وتجاهل، قال الراجز: =

على سكان هذه الإمبراطورية اسم (يهود الخزر)، فمن هؤلاء الخزر؟ ومن أين جاءت تسميتهم؟ وكيف اعتنقوا الديانة اليهودية؟ وما يتعلق في نشاط هذه الإمبراطورية؟ سنتعرض لكل ذلك في دراستنا بهذا الفصل.

= **إذا تخازرت وما بي من خزر**

والخازر الرجل الداهية، والخزر مصدر وجيلٌ من الناس خُزر العيون، ومنه بحر الخزر، والخزور الشاب القوي. راجع البستاني، المعلم بطرس محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٣٩.

وقيل: الخزر بالتحريك وآخره راء، وهو انقلابٌ في الحدقة نحو اللحاظ، وهو قبح الحال، وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند قريب من سد القرنين. ويقولون: الخزر نسبة إلى خزر بن يافث بن نوح عليه السلام، وقال في كتاب العين: الخزر جيل، خزر العيون. راجع الحموي، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٦٧٠، وخزر بالتحريك بلاد الترك خلف باب الأبواب، وهم صنف من الترك، وهو في إقليم من قصبة تسمى آتل، وآتل نهر يجري إليهم من الروس، قال دعبل يمدح آل البيت عليهم السلام:

وليس حيٌّ من الأحياء نعرفه ... من ذي يمانٍ ولا بكر ولا مُضر
إلا وهم شركاء في دمائهمُ ... كما تشارك أيسار على خزر
قتلٌ وأسرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ ... قتل الغزاة بأهل الروم والخزرِ

راجع البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت ٧٣٩ هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق محمد علي البجاوي، المجلد الأول، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (١٣٧٣ هـ-١٩٥٤ م)، ص ٤٦٥. والخزر يقال لهم الخزرة أيضًا، وهم اسم لجيل من كفرة الترك، وقيل من العجم، وقيل من التتار، وقيل من الأكراد من ولد خزر بن يافث بن نوح عليه السلام، وقيل هم ولد كاشح ابن يافث، وقيل هم الصقالبة من ولد ثوبال بن يافث، وفي حديث حذيفة «كأني بهم خُنس الأنوف خزر العيون»، ورجلٌ خزري وقوم خزر...إلخ. راجع الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، ج١١، ص ١٥٥.

يقـول د.م. دنلوب: «ومما يوضح أن الرسائـل التي كانت ترسـل في القرن العاشر من عاصمـة البوسفور إلى ملك الخزر الـذي عرف باسم (الخاقان) حملت ختمًـا ذهبيًّا أوسع وأرشق مـن أختام الرسائل التي أرسلت إلـى البابا في روما وإلى خلفاء شارلمان»[1].

هذه العبارة تعطينا معنى أن «ملك الخزر كان يحكم مملكة لها مـن الأهمية أن يميزهـا الملوك أو الحـكام بدبلوماسة أكبر قدرًا من غيرها، وهذا يدلل لنا حقيقة ما سيرد عن قوة وشكيمة هـذا الشعب الخزري. لقد اختلفت المصـادر التاريخية في أصل هذه التسمية وتباينت من رأي إلى آخر، وكلٌّ له ما يعتمد عليه في رأيه، فمن قائل أن أصل كلمة الخزر مما ذهب إليه علماء اللغة، أي أن تسميـة البلاد جاءت من صفـة الشعوب التي تسكنها، إذ إن اسـم الخـزر كان بسبب ضيق عيونهم التـي يسمى صاحبها أخزر العين»[2].

أمـا مـن يرى أنه جـاء من اشتقـاق لغوي فيذهـب إلى أن (الخـزر) معناه البـداوة، إذ يرجـع الكلمة إلـى الفعل (خزر)

---

(١) دنلوب، د.م. تاريخ يهود الخزر، نقله إلى العربية وقدم له د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط٢، دمشق، سوريا، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠، ص ١١.

(٢) البستـاني، مصـدر سبق ذكره، صـ ٢٣٩، والحموي، مصدر سبـق ذكره، ص ٣٦٧، والزبيدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.

ومعناه في التركية (قز)، ويعني هذا الفعل (يتجول) أو (يبتدئ) من البداوة، أو قد يكون (قزماك)[1].

وهذا الرأي قد يكون مما يؤخذ به، باعتبار أن شعب الخزر شعب بدوي يمارس الرعي والتجوال طلبًا لفرص العيش، إلا أننا نرى غير هذا؛ إذ إن الدراسات الجغرافية والبشرية أعطت طابعًا آخر، فهم شعب مستقر قد يمارس بعض الرعي، إلا أن طابع الزراعة والاستقرار هو الطابع الرئيس للخزر.

ومما يؤيد هذا ما يقوله المقدسي: «وتتكاثر في بلاد الخزر قطعان الأغنام، وتنتج من العسل كميات وفيرة، ويعيش فيها العديد من اليهود»[2].

ويرى ج. ديني J. Deny أن اسم (خزر) جاءت من Quzer أو Quazar ومعناه طرف الجبل المواجة لجهة الشمال، وإذا زدنا عليه (eri) فإنه يصبح شعب الشمال.

هذا وإن كان ما يعضد رأيه أن في لغة أرمينيا القديمة ولغة جورجيا غالبًا ما يطلق على ملك الخزر (بملك الشمال)، لكن الوثائق الخاصة بمراسلات الخزر والتي تعرف بوثائق كمبرج كان فيها (Kazar)، وهذا يقرأ (قزر)[3].

---

(١) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.

(٢) المقدسي، المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه د. محمد مخزوم، دار التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، ص ١٤٨.

(٣) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠ – ٢١.

دولة الخزر و جيرانها

ثانيًا الموقع الجغرافي لإقليم الخزر

الخزر اسم إقليم من قصبة تسمى (أتل)، وأتل اسم لنهر يجري إليها من الروس والبلغار، وأتل مدينة، والخزر اسم المملكة لا اسم المدينة، والأتل قطعتان، قطعة على غربي النهر وهي الكبيرة، وقطعة شرقية، والملك يسكن الغربي منها، ويسمى الملك بلسانهم (يلك)[1].

و ذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم قوله: «وقد جعلناه خمسة كور، أولها من قبل خراسان قومس ثم جرجان ثم طبرستان ثم الديلمان ثم الخزر...»، حتى يصل إلى قوله: «أتل قصبة كبيرة على نهر يمتد إلى البحيرة التي يقال لها أتل، وإليه أضيف اسم البلد، وكان ملكهم يهودي»، ويستمر بوصفهم إلى أن يصف مدنهم وهي سمندر، وبلقاء وباب

(١) حماد، أحمد أحمد بن فضلان بن العباسي بن راشد، رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، (د. ت)، ص ١٦٩ – ١٧١.
وأحمد بن فضلان هو رسول الخليفة العباسي المقتدر إلى ملك البلغار الذي توجه بخطاب إلى أمير المؤمنين العباسي يطلب منه أن يبعث إليه من يفقهه في الدين الإسلامي ويسأله عن بناء حصن يتحصن به من هجمات ملوك الخزر، وكان ذلك عام (٣٠٩ هـ) الموافق (٨٨٨ م)، ودامت الرحلة عامًا كاملاً، كتب ابن فضلان ما لاقاه ورجاله في رحلته من المصاعب والنوازل، وذكر ما شاهده من الأراضي والأقاليم وتضاريسها والشعوب التي مرَّ بها وعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسة، وكانت رحلته هذه مرجعًا تاريخيًّا رئيسًا في دراسة المناطق التي مر بها. والبغدادي مصدر سبق ذكره ص ٤٦٥.

الأبـواب، ويصف نهرهم الذي سماه (نهر الخزر)، ويضم إقليم الخزر ضمن إقليم الخزر ضمـن إقليم، إلا أنها لا تخرج بعضها عن موقعها الجغرافي فيقول: «هو إقليم حار إلا قومس، كثير المياه والأمطار، ليس فيه نهر تجري فيه السفن إلا بناحية الخزر»[1].

ويذكر لنا ابن الفقيـه في وصفه لبلاد أرمينيا التي قسمها على أربعة أقاليم: «إن مملكة الخزر تقع ضمن أرمينيا الرابعة، وذكـر فيمـا وصفـه ما طابـق غيره مـن أسمـاء المـدن وأهلها والأقاليـم وطبيعتها»[2]. ولم نجد اختلافًا بـين المؤرخين الذين

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧١ – ٢٧٧.

(٢) ابـن الفقيـه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، مختصـر كتاب البلدان، دار إحياء الـتراث العربـي، بيروت، لبنـان، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م، صـ ٢٤٨ – ٢٧٩، وبالطريقة نفسهـا يذكـر البـلاذري في حديثـه عن وصـف بلاد الخـزر في كتابـه (البلدان)، فيقـول: «والمسافـات بين بلاد بحر الخزر و نواحيها من آبسكون إلى بلاد الخزر عن اليمـين نحو ٣٠٠ فرسخ وعن اليسار ٣٠٠ فرسخ أيضًا، ومن أبسطكون إلى دهستان ٦ مراحـل، ويقطـع هذا البحر إذا طابـت الريح من طبرستان إلـى باب الأبواب في أسبـوع، ومـن أتل إلـى سمندر في ٣ أيام، ومـن أتل إلى برطاس ٢٠ يومًا، ومن أول برطاس إلى آخـره ١٥ يومًا، ومن برطاس إلى بجناك نحو ١٠ مراحل، ومن أتل إلى بجنـاك مسـيرة شهر، ومن أتل إلـى بلغار نحو شهر، ومن بلغـار إلى حد الروم نحو ١٠ مراحـل، ثـم يستمر في وصف البلاد فيصف نهر أتـل فيقول إنه يخرج من قرب خرخـير، ثم يجري بين الكيماكية والفزيـة و يتجه غربًا على ظهر بلغار ويعود شرقًا حتى يجوز الروس، ثم يعود راجعًا داخل البلغار، ثم على برطاس، ويبقى عمود النهر يجـري في الخزر حتى يقع في البحر، و للخزر مدينة تسمى سمندر، فيما بينها وبين بـاب الأبـواب، فيها بساتين كثيرة، ويقال إنها تشتمل علـى نحو أربعة آلاف كرم إلى حد السرير، والسرير اسم مدينة سميت على اسم سرير من ذهب كان لبعض ملوك الفرس، وأهلها نصارى، ويقال إن السرير تم عمله في سنين طويلة. =

اختلفت أجناسهم ومصادرهم وأزمان دراستهم بأن الخزر هم الشعب الذي يسكن بلاد القوقاز وحوض بحر قزوين ونهر الفولغا، وقد جرت دراسات حديثة متنوعة، جغرافية كانت أم تاريخية طابقت ما جاء به المؤرخون في القرون المتقدمة؛ فنرى قول الشمالي بهذا الخصوص «في مناطق القوقاز في الرقعة الممتدة بين نهري الفولغا والدون وحتى شواطئ بحر الخزر والبحر الأسود، كانت هناك في القرن الثامن الميلادي (مملكة) يهودية عاشت قوية ومنتعشة مدة طويلة من الزمن، ولقد كان أهل تلك المملكة خليط يعود بأصوله إلى أواسط آسيا وشرقها، وهم يعدون من أكبر الجماعات التي اعتنقت الديانة اليهودية خلال العصور المتعاقبة»[1].

= وبرطاس مدينة متاخمة للخزر، ولسانهم لسان الخزر، والخزر اسم الإقليم، وقصبته أتل...إلخ». راجع البلاذري، الإمام أحمد بن يحيى بن جابر، البلدان وفتوحاتها وأحكامها، تحقيق سهل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م، ص ١٣٢ – ١٣٧.

ويصف لنا المغربي بقوله: «ويقع هذا الباب (باب الأبواب) في مضيق يتكون من شاطئ بحر الخزر ومن الطرف الشرقي لجبال القوقاز، بينما يتصل بالأسوار التي ذكرها الكتاب العرب وقالوا إنها تمتد حتى شواطئ البحر الأحمر»، وذكر الأمير (كانتامير CANTAMIR) بأنها تمتد مسافة فرسخ ونصف، وأنها مبنية بأحجار مرصوصة دون الإسمنت والحديد، وأنها بنيت في أيام الخليفة هارون الرشيد عام (١٨٠ هـ – ٧٩٦ م). راجع بذلك المغربي، أبوالحسن علي بن موسى بن سعيد كتاب الجغرافية، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل المغربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت)، ص ١٧٧.

(١) الشمالي، نصر، ملاحظات أساسية حول المسألة اليهودية، ط ٢، مكتب الخدمات للطباعة دمشق، ص ٧٢. وليلنتال، الفريد، ثمن إسرائيل، ترجمة حبيب غولي وياسر هواري، كتاب الملايين، ١٩٥٤، ص ٢٢٩.

أما كيستلر فيقول: «إن الغالبية العظمى من اليهود الباقين في العالم (المعاصر) هم من أصل أوربي شرقي، ومن ثم من أصل خزري، وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين لم يأتوا من وادي الأردن، وإنما من الفولغا، ولم ينحدروا من كنعان، وإنما من القوقاز»[1].

ويقول أيضًا: «حتى القرن التاسع الميلادي لم يكن للخزر منافس لسيادتهم على الأقاليم الواقعة شمال بحر قزوين وأقاليم السهوب والغابات المتاخمة لنهر الدنيبر؛ بل كانوا أصحاب السيادة العليا في النصف الجنوبي من أوروبا الشرقية طيلة قرن ونصف من الزمان، وشكلوا سدًّا منيعًا يحول دون أي زحف قادم من آسيا وأوروبا عبر المدخل القادم من أورال وبحر قزوين، واستطاعوا طيلة هذه المدة صد الهجمات القادمة من الشرق»[2].

---

(١) كيستلر، آرثر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم، ترجمة أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص٢٦. وكيستلر هذا مفكر صهيوني ولد في هنغاريا عام ١٩٠٥م، وانتقل إلى بريطانيا حيث عاش فيها منذ عام ١٩٤١، وقام بإعداد كتابه إمبراطورية الخزر وميراثها، ويعد هذا مرجعًا مهمًّا يفي فيه بالوقائع التاريخية لانتماء معظم يهود العالم إلى يهود أوروبا، وينفي علاقتهم بالعرق السامي، بل ويكشف أصولهم التركية دون أن يعني هذا تبدلًا في موقفه المؤيد لوجود إسرائيل.

(٢) الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد عبدالله بن إدريس الحموي الحسيني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلد ٢، عالم الكتاب للنشر، بيروت، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، ص ٨٣٤ – ٨٣٧.

ويذكر اليعقوبي: «وكانت الخزر المتغلبة على عامة بلاد أرمينيا، وعليها ملك يقال له خاقان، وله خليفة يقال له (يزيد بلاش)، يحكم الران وحرزان والسفرجان والسيحان، وكانت هذه الكور تسمى أرمينيا الرابعة التي افتتحها قباذ ملك الفرس، ثم صارت إلى أنو شروان، إلى باب اللان مئة فرسخ، وفيها ثلث مئة وستون مدينة، وغلب ملك الفرس على الباب والأبواب (دربند) وطبرسران والبلنجر، وبنى مدينة قاليقلا ومدنًا كثيرة»[1].

ويروي لنا الطبري: «أن أنوشروان قسَّم إمبراطوريته إلى أربع مقاطعات كبيرة أو (اصيهزين)، وكان من بينها أصبهز أذربيجان وما والاها من بلاد الخزر، وقد كان منشغلًا في الحرب مع إحدى الأمم التي عرفت باسم (صول)، وهم بالتأكيد سكان الأصقاع الشمالية الشرقية القصوى لجبال القوقاز، وفي أحواز حمر صول (دربند)، وقهر أمة باسم (بلنجر)، وأمة عرفت (بنجر)، وهم البلغار وأمة أخرى لربما كانت هي الخزر»[2].

ويذكر لنا أيضًا الدينوري بأن أنو شروان خلف ابنه هرمز [٥٧٩ - ٥٩٠ م]، وهرمز هذا شارك بالحرب ضد تحالف كبير كان يضم الخزر والإغريق[3].

---

(١) اليعقوبي، أحمد بن واضح الكاتب، تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، ١٩٦٤، ص ١٦٨.

(٢) الطبري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤ – ٢٦٦.

(٣) الدينوري، أبوحنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، المكتبة الأزهرية، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ص ٣١٤ – ٣١٨.

ويضيف في حديث آخر... إن الاسكندر الكبير -والذي سماه الفاتح الكبير- عندما رجع من فتوحاته في شمال إفريقيا عزم الرجوع إلى الشرق، لكن وزراءه حذروه من الصعوبات التي سيواجهها عند عبوره البحر الصفر ذي المياه الآسنة، لكن على الرغم من تحذيرات وزرائه اجتاز الأراضي الإغريقية ووصل بلاد الخزر واستمر حتى أراضي الترك»[1].

وأورد المسعودي أن الخزر كان موطنهم القوقاز وحوض الفولغا والأجزاء الجنوبية لروسيا[2].

ويذكر ابن الفقيه عن الري ومكانتها الجغرافية والتجارية، وكيف كانت عروس البلدان، ويسرد لنا أسماء الأقاليم التي تليها فيقول: «فهي عروس الأرض، وواسطه خراسان وجرجان والعراق وطبرستان، وهي أحسن الأرض مخلوقة، ولها السُّرُّ والسربان، وإليها تقع تجارات أرمينيا وأذربيجان وخراسان والخزر وبلاد برجان؛ لأن تجار البحر يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، حتى يذكر لنا أنهم يجيئون إلى خليج الخزر فيُعشِّرهم ملك الخزر»، وكتب ابن سعيد المغربي[3]

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٥.

(٢) المسعودي أبو الحسن علي بن أبي الحسين بن علي مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ١ دار الأندلس بيروت ١٩٦٩ ص ٢١٢.

(٣) المغربي مصدر سبق ذكره ص ١٧٧.

وهـو مؤرخ إخبـاري عربي يقـول: «أما عن الخـزر فهم ينزلون شمال الأرض المأهولة قرب الإقليم السابع بحيث يقع برج الدب الأكبر فوق رؤوسهم وبلادهم باردة مطيرة؛ ولذلك فإن بشرتهم بيضـاء، وعيونهم زرقاء، وشعرهم كثيف ضارب إلى الحمرة في الغالـب، وأجسادهم ضخمة، وطباعهم بـاردة، وينم مظهرهم العام عن كونهم غلاظًا همجًـا...»، يصف بلادهم بقوله: «يقع هذا البـاب (باب الأبواب)[1] في مضيـق يتكون من شاطئ بحر الخزر ومن الطرف الشرقي لسلسلة جبال القوقاز، بينما يتصل بالأسـوار التي ذكرها الكتَّاب العرب، وقالوا إنها تمتد من الباب حتى شواطئ البحـر الأسود، وذكر الأمـير كانتامير Cantamir الـذي عاين هذه الأسوار ابتداءً من مدينـة دربند مسافة فرسخ ونصف غربًا، وقد ذكر أنها تمر بقمم الجبال وإنها مبنية بأحجار مرصوصة بدون إسمنت أو حديد، وكذلك لاحظ إنها لا يوجد لها أي أثر، إن هذه الأسوار تمتد حتى شواطىء البحر الأسود.

(١) القزوينـي، الإمام العالم زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للنشر، بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠ م، ص ٥٠٦، ويستطرد القزويني بحديثه عن مدينـة (باب الأبواب) فيصفهـا بأنها مدينة عجيبة على ضفـة بحر الخزر، مبنية بالصخـور يصيب مـاء البحر حائطها، طولهـا مقدار ثلثي فرسـخ، وعرضها غلوة سهـم، عليها أبواب مـن الحديد، ولها أبراج كثيرة، ولها سـور، وعلى السور حراس تحرسـ من العدو. بناها أنو شروان كسرى الخير، وهـي أحد الثغور العظيمة؛ لأنها كثـيرة الأعداء من أمم شتى، وإلى جانب المدينة جبل أرعن يجمع عليه حطب كثير، يُشعـل عنـد إنذار أهل آران و أذربيجـان و أرمينية بمجيء العـدو، وكانت الأكاسرة شديدة الاهتمام بهذا المكان لعظم خطره وشدة خوفه.

أمـا هذا الباب فقد بني في زمـن الخليفة العباسي هارون الرشيد عام ١٨٠هـ - ٧٩٦م[١].

ويصـف ابـن العـبري بلاد الخـزر حتـى يصل إلـى باب الأبـواب، ويرى أن هذه من آثـار (السد العظيم)[٢]، وأن موضع السـد العظيم هو نفسه (بـاب الأبواب)، ويقـع في مروج بلدان القنجـاق، وقد تم حفر موضع الأساس في الجبال حتى ألحق في بحر الروم، ولم تزل ملوك فارس في طلب هذا الأساس، وكذلك حكام وملوك جميع الأقاليم المجاورة من بلاد العراق وأذربيجان وآران وأرمينيا[٣].

ثالثًا: الأصول العرقية لشعوب الخزر

تباينـت آراء المؤرخـين ونتائـج الباحثـين في أصول الخزر العرقيـة وانتمائهم لأي جنس، وانقسمـت تلك البحوث والنتائج إلى قسمين:

القسم الأول: كان يشكل نظريات يضع أصحابها احتمالات مستندة إما على روايات أو أحداث تاريخية، أو على أمور توصَّلوا إليهـا عن طريـق دراسة شعوب أخرى، ومثل ذلـك ما كان يأتي

(١) المصدر نفسه ص ١٧٨.

(٢) يقصد بالسد العظيم سد يأجوج ومأجوج المصدر نفسه ص ١٧٩.

(٣) ابـن العبري العلامة غريغوريوس الملطي تاريخ مختصر الـدول دار الآفاق العربية القاهرة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ص٥٨.

مـن روايات عـن علاقة الخزر بالإيغـور[1]، أو بقبائـل الهون أو عـن أساطير ورد ذكرها أحداث تاريخية كالغزو والحروب، وقد يكـون ذلك من خلال دراسة عن تنقل قبائل أو شعوب من مكان واستقرارهـا في مكان آخر، وهذه الطريقـة لم تكن صالحة لأن يعتمد عليها الباحثون في موضوعٍ مثل هذا؛ إذ إن شعبًا أدى دورًا مهمًّا في التاريخ السياسـي والديني لم تكن طبيعته من الشعوب المتنقلـة أو المبتدئة، وهذا ما سنراه في دراستنا من خلال نشاط هذه الإمبراطورية في حقبة زمنية قد تتعدى ستة قرون.

---

(١) الإيغور قبائل مختلفة كانت تسكن مناطق مختلفة من أراضي الترك لاسيما الغربية منها، وهؤلاء الأقوام كان وجودهم قبل ظهور الترك، وبعد ظهورهم إذ اتحد الأتراك الشرقيـون مع الغربيين آنـذاك، وكان للإيغـور أدوار سياسيـة بالمنطقة بخصوص النزاعـات الإقليمية، وقد ورد هـذا في المصادر الصينية، وأشارت تلك المصادر إلى علاقـة هؤلاء بالروم وجيرانهم العـرب، وقد أطلق عليهم في بعض المصادر الأتراك الغربيـون، وتـورد بعض المصادر أن الإيغور كان لهـم دور في تقويض سلطة الأتراك الشرقيـين وإقامة حكمهم على ضفاف نهر أورخون حتـى عام (٨٤٠م)، وقد سبق القـول عن قبائـل إيغورية تسكن غرب نهـر الفولكا، وأنهم شكلـوا هجرات متتابعة استقرت غرب الأتراك، وهو أنهم لم ينسحبوا جميعهم نحو الغرب، إلا أننا نعرف أن شعبًـا غربيًا كان يقطن هذه المناطـق ويخضع لسلطة الأتراك، وقد كان هذا الشعب جـزءًا مهمًّا في إتـلاف قبضة الإمبراطورية التركية بشقيهـا الشرقي و الغربي،كان ذلـك في القرن السادس الميلادي، وربمـا كان ذلك الائتلاف مع الخـزر أنفسهم. وتذكـر المصـادر أن الخزر قد حلـوا مكان الأتـراك الغربيين أوقـات عديدة نتيجة غارات يشنها البعض على الآخر.

راجـع دنلـوب، مصدر سبق ذكره، صـ ٦١ – ٦٥، والساداتـي، حسن أحمد محمود (دكتـور)، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٦٢ – ٦٣.

القسم الثاني: وهي الدراسات التاريخية المعتمدة على الأحداث والوقائع الموثقة التي كانت بحد ذاتها شواهد تاريخية تدلل على حياة ونشاط الشعوب -مدار البحث- مثل: روايات الرحالة أو وقائع الحروب التي كانت تدور في المنطقة، ومن ثم ما تركته تلك الشعوب من موروث سياسي أو مادي أو ديني نستطيع بوساطته أن نتوصل إلى نتائج أقرب إلى الواقع؛ فاليعقوبي يرى أن الخزر هم أولاد يافث ثالث أولاد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن استقرارهم في هذا الركن من المعمورة جاء من خلال تقسيم فالخ بن عابر للأرض بين أولاد نوح، فقسمها فصار لأولاد يافث الصين والهند والسند والترك والخز والتيبت والبلغار والديلم وخراسان[1].

ويؤيد الطبري ما ذكره اليعقوبي في كتابه، إلا أننا لا نرى في هذا الرأي حجةً قاطعةً نستطيع أن نميل إلى ترجيحها، والدليل هو عدم تطابق أو توافق الأجناس البشرية للأماكن التي ذكرها اليعقوبي، ونحن نرى أن الأشكال البشرية في الصين تختلف اختلافًا كبيرًا عما هو موجود في الهند، كذلك التباين عند أهل الصين مع البلغار وأهل خراسان، ولا يوجد هناك ربط في لون البشرة أو معالم الوجوه وحتى المزايا والأطباع، فنحن نرى أن هذا الرأي لا يحتاج إلى أن نقف عنده، فلو نظرنا إلى العرب

(١) اليعقوبي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠ - ٤٢.

مثـلاً فإننا نجد هناك تقاربًا كبيرًا في شـكل أجسامهم و ألوان جلودهـم وما إلى ذلـك، وهذا ما يدعونا إلى القـول بأنهم على وفق ما ورد بانتمائهم لسلالة واحدة ولأب واحد[1].

ويروي لنا دنلوب[2] عمـا يرويه جيبون بأن هناك معلومات وصلـت إليه عن طريق السجـلات الصينية والمنقوشات التركية القديمة وبعض المقاطع من كتـب البيزنطيين تحدثت عن وجود الإيغـور في الغـرب، وقد سيـق لنـا أن هناك علاقة بـين هؤلاء والخزر؛ بل إن العلاقة لم تكن علاقة طارئة، بل ربما تكون علاقة نسـب مع القبائل الخزريـة، حيث إنه قد ورد بـأن قبائل الخزر كان مـن الأسماء التي أطلقت عليها (كوسا) أو (كوسا الخزر)، ولمـا كان أحد أسماء قبائل الإيغور التسعة كوسا فهذا قد يدعونا إلـى الوقوف على أنه ربما يكون هؤلاء الخـزر أحد قبائل الإيغور التي وردت في الكتابات الصينية أو التي ذكرها الأسير الصيني الـذي وقع في أيدي العرب عام ٧٥١م، والذي ذكر أنه كان يسمع أن الخزر جيران العرب من الشمال.

وبمـا أنه هناك رواية بهذا الصدد جاءت في كتاب تانغ شو Tang – shu الصينـي ترجع إلى عـام ٩٥٤م مفادها أن الكوسا تـرك مقيمون في شمال الإمبراطورية البيزنطية وخوارزم وبلاد

(١) الطبري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣٥.

(٢) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

فارس، فقد أصبح من الممكن ربط هذه الروايات ببعضها والاستدلال على أن الخزر ربما يكونون من أصل إيغوري، ويدعم بداية هذه الرواية أن الكوسا ترك هم من الأصل نفسه الذي ترجع إليه قبائل الشادو ترك، وهؤلاء هم من الأتراك الغربيين، وهذا الرأي يدعمه المؤرخ بول بيللوت Paul – Pelliot الذي يقول إن كوسا هذه هي من القبائل الإيغورية[١]. وبما أن الإيغور كانوا موجودين أيام الإمبراطورية التركية بحدود ٧٤٢ م، وأنهم كما ذكر قد كونوا ائتلافًا عمل على تقويض سلطة الأتراك الشرقيين، وتسلم مقاليد الزعامة والسلطة على ضفاف نهر أورخون حتى عام ٨٤٠م، فإن هذا يدعونا إلى التساؤل عن صحة هذه الروايات مع ما هو موجود في سجلات الشرق الأقصى التي تذكر وجودهم بزعامة اتحاد الأقاليم التركية أيام وي WIE الأخير بين عامي ٢٢٧ – ٢٦٤م[٢].

لذلك فنحن نعلق صحة هذه المعلومات كونها ضمن المعلومات الواردة عن تنقل القبائل وشعوب المناطق المتاخمة لبلاد الخزر؛ بل إن الهجرات المتعاقبة من وإلى المنطقة ذاتها كانت سببًا في عدم الجزم بهذه الأمور؛ وذلك لاختلاط الأخبار مع بعضها، وعدم وجود مصادر تستطيع القطع بهذا الأمر[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٢) مينورسكي، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣.

(٣) مرقوارت، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

وننقل هنا رأيًا لابن فضلان يقول فيه: «ويمكن أن يُعد هذا الوضع حالة من حالات الهجرات المتتابعة لمجموعات من الإيغور جاءت قبل عام ١٦٥م نزحوا بها غربًا حتى اقتربوا من حدود أوروبا، ونحن نقرأ عن قبائل إيغورية في غرب نهر الفولغا عام ٥٦٩م، وعن قوة من الإيغور تحاصر البوسفور عام ٥٧٦م، وفي كلا الحالتين فإن هؤلاء أتباع للأتراك الغربيين[١].

لكن دنلوب يقول: إن الإيغور لم ينسحبوا غربًا، لكن هناك شعب غريب كان يقطن في الأرض التي يسيطر عليها الأتراك، وربما وراءها، وقد عانى هذا الشعب من هزائم ومذابح كان يتوق بسببها إلى الانتقام، ولم يكن من قبيل الصدفة أن تم القضاء على الأتراك الغربيين بين عامي ٦٥٢ - ٦٥٧م، وكذلك القضاء على الأتراك الشرقيين فيما بعد على يد ائتلاف كوَّن الإيغور جزءًا مهمًّا منه، وبالوقت نفسه نحن نعلم أن الخزر قد حلو محل الأتراك فيما يخص السلطة بعد ذلك بقليل[٢].

ويبدو أن الخزر كانت تدعمهم مجموعات أخرى مثل الزبندر (سمندر) والبلغار، وأنهم أصبحوا يسيرون بخطى حثيثة نحو إنشاء إمبراطورية، ومن المفهوم أن فرض زعامة الخزر والإقرار بها عام ٦٥٧م أو بعده ما كان ليتم لولا أن

(١) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧١.

(٢) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

هـؤلاء الخزر كانـوا يمثلون قبيلـة كوسا التي انتمـت إلى شعب قديم حاكم، وعلى هذا فإن انتماءهم العرقي يجب أن يكون إلى أسلاف أقل أصالة من ذلك[1].

إن الـرأي الذي يقـول إن الخزر هم كوسـا (إيغور) يعوزه الإثبـات والبرهان الحـازم، لكننا مع هذا نجد اعتبارات تدعم هذا الرأي، مما يدعونا إلى الوقوف عنده في الوقت الذي نكتشف طـورًا من أطوار النمو القـديم للإيغور في المنطقة المدعوة ببلاد الخـزر، فقد كان هناك شعب يدعـى (بوغوريا) أو (بانغوريا)، وهو أحد الشعوب التـي احتلت أوروبا الشرقية قبل قدوم الخزر والبلغار، وقد بُذلت جهود كبيرة لإثبات صحة هذه الفرضية؛ إذ إننا نجد ناشري كتاب ابن العبري الأوائل برنز Bruns وكيرسش Kirsch يقدمان اسم (الهنغار)، وأما ولس بدج Waillis Budge فيقـدم اسم البنغوريين، في حين يقترح ماركـوت تعديلًا للنص بحيـث يصبـح شعب بلنجـر، ويبدو أن هـذا الـرأي الأخير هو التفسـير الأكثر معقوليـة وقبولًا، لكن بما أن ابـن العبري يذكر كلمة مشابهة عند الإشارة إلى الإيغور؛ لذلك لا يسعنا الا إثباتها هنـا، فقـد جاء فيها ما يعنـي أن الإيغور هم الـذي استقروا في أوروبا حسبما نجدهم في المصادر الإغريقية[2].

(١) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٢) مرقوارت، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

هذا وإننا نجد بين أسماء الأعيان والشخصيات البارزة في دولة الخزر حامل لقب جاوشيغر، وذلك طبقًا لما ذكره ابن فضلان، ومن المحتمل أن يكون آخر جزء من هذا اللقب هو (إيغور).

وقد فسر هذا اللقب بـ (شاووش إيغور) الذي قد يكون معناه (مقدم الإيغور)، وهذا من التفسيرات البديلة التي تبدو مصنفة بشكل مفرط[١].

وهناك بعض التشابه بين المراسم المتبعة لدى خاقان الخزر كما يصفها ابن فضلان[٢] وبين بعض القصص التي تروى عن ملك الطغز أوغز التي سوف نقدمها هنا؛ فالمصادر العربية على العموم تجيز إطلاق اسم شعب الطغز أو غز على الإيغور، وبصورة خاصة على أيغورتيان، شأن الذين تعنيهم هذه القصص منذ نحو سنة ٨٦٠م، فملكهم شأنه شأن ملك الخزر لا يحكم بنفسه بل «جميع شؤون مملكته كان يتم تصريفها على أيدي الوزراء والحجاب» «وكان خاقان الخزر يمتلك ستين جارية، أما ملك الطغز أو (الغز) فكان يمتلك ثلاث مئة و ستين جارية»[٣].

---

(١) ابن العبري، نقلًا عن دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

(٢) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.

وكان ملك الطغز أو (الغز) يظهر أمام شعبه مرة كل سنة، أما خاقان الخزر فطبقًا لابن فضلان كان يظهر لشعبه علنًا كل أربعة أشهر، وكان يتقبل عند ظهوره خضوع شعبه واحترامهم عندما يسجدون أمامه، كما أن شعب الطغز أو (الغز) كان يسجد أيضًا. وإذا كان ما ذكرناه ممارسًا حقيقة بين (التيان شان) أيغور، علينا كما يبدو أن نفهم بأن هناك علاقةً وطيدةً بينهم وبين الخزر[1].

مما تقدم من الآراء والنظريات في أصول الخزر نجد أن هنالك اختلافًا كبيرًا في نظريات أصولهم، فمن ذاهب إلى أنهم من الإيغور، وآخرون يرون أنهم أتراك غربيون، وقال قسم آخر إنهم من المغول، وكثير من الآراء والاحتمالات التي تبدو للقارئ في بدايتها أنها هي الصواب ثم تحيد عن ذلك في نهاية الكلام عندما يلتقي هذا الرأي بما يعارضه أو يفنده بنظرية أخرى، فالمساحة التي امتدت إليها الفرضيات وصلت من الدانمارك غربًا إلى الصين شرقًا، وتحدث بعضهم عن هؤلاء الأقوام بأنهم اعتنقوا الإسلام في بعض الأوقات أو المسيحية، وقال آخرون إنهم كانوا يدينون بالوثنية، ثم إنهم استقرت ديانتهم على اليهودية، وخلاصة القول بأنه لم يكن هناك قول قاطع يذهب بالخزر إلى جهة محددة، ولكن من خلال تمحيص

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٣.

الآراء وترجيحها يمكننا أن نرجح الرأي القائل أن الخزر هم من الأتراك الغربيين؛ وذلك لكثرة ميل المصادر وما أوردته من الأخبار التي تعضد آراءهم بأنهم من الأتراك؛ فعادات شعوبهم، وألقاب ملوكهم، وتقاليدهم كلها تتشابه مع العادات والتقاليد والمراسم عند الأتراك، ثم إن العلاقات السياسية مع الكيانات المجاورة من غير الأتراك -والتي وضعت الاحتمالات أن يكون الخزر منهم[1] كانت هذه العلاقات بمثابة دحض لأي رأي يقول إنهم مغول، أو إنهم من الهون أو من الإيغور، فطالما تعرضت مملكة الخزر إلى غارات هذه الشعوب وحروبها المستمرة، فيقول الأستاذ زكريا كتابجي في كتابه الترك في مؤلفات الجاحظ نقلًا عن بروكلمان في نشأة الأتراك: «إنه بين سكان التيبت والصين في الشرق، والجنس الآسيوي القديم (السيبيري) في الشمال والشعوب الفلندية والأغروية في الغرب نشأ الشعب التركي فوق سهول سيبريا الشمالية الواسعة والبوادي القائمة هناك وبين بحر الخزر (قزوين) وجبال التالي». وهنا نرى أن بروكلمان قد شمل هذه المناطق ولم يستثن منها أحدًا من الشعوب، فهو قد عدهم ضمن الأتراك طالما كان الحديث عن نشأة الأتراك، ثم يعود صاحب الكتاب نفسه وهو يتكلم في موضوع عنوانه قبائل

(١) العاني، رشدي محمود، الحقيقة التاريخية لعلاقة يهود الخزر والدونمة ببني إسرائيل، منشورات شركة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣م، ص ٦٨.

الأتـراك فيقول: «أما قبائـل الأتراك وبطونهم، فـإن كثيرًا من مؤلفـي العرب قد عنوا بالحديث عنها منـذ بداية القرن الثالث الهجري، ولم يفت البعض منهم أن يسيحوا بين القبائل التركية ويصرفـوا أيامًا من عمرهم ويكتبوا أشياء غريبة عن عقائدهم وعاداتهـم، ونخلص من أقوالهـم إلى قبائل الأتـراك المشهورة بـين العرب هي الغز، والقرغـز، والخرخر، والخرلوخ، والخزر، والبجناكبة وغيرهم، وهكذا فإن جميع المعلومات أو أغلبها تؤكد لنا أن أصول الخزر تعود إلى العراق التركي»[1].

رابعًا الحالات العامة للخزر

أ – الحالة السكانية والاجتماعية

لابـدَّ لنا أن ندرس حالات هذه الشعوب منذ بداية ظهورها علـى مسـرح الحياة لكـي نطلع علـى الأوضاع المشتملـة لمناحي الحياة التـي كانت سببًا في ظهور هذه الشعـوب وتأديتها لأدوار مهمـة في حقب خلـت من الزمن الماضـي، إذ إن أساليب العيش والمستويـات المعاشية لكل مجتمع لها أهمية في قوة ذلك المجتمع أو ضعفـه؛ فـكان للموقـع الجغرافي الـذي شغلتـه قبائل الخزر أهميـة كبيرة في قوة ومركزية هذه القبائل في المنطقة، إذ كانت

(١) البـلاذري، الإمام أحمد بن يحيى بن جابر، فتـوح البلدان، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، ص ٢٤٢.

مسرحًا لتفاعل نشاطات مختلفة بينهم وبين الذين يرتادون هذه المناطق من التجار القادمين عبر البلدان المجاورة؛ فضلًا عن نشاط السكان الأصليين.

جاءت رواية الأصطخري[1]: «وأما الخزر فإنه اسم لإقليم وقصبته تسمى (أتل)، وهو اسم النهر الذي يجري إليه من الروس والبلغار، و(أتل) قطعتان غربية وشرقية، والملك يسكن الغربي منها ويسمى الملك بلسانهم (بك) ويسمي أيضًا (باك)، وأبنيتهم فركاهات لبّود إلا شيئًا يسيرًا من الطين، ولهم أسواق وحمَّامات وفيها خلقٌ من المسلمين يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجدًا، وقصر الملك بعيدٌ من شط النهر، وهو من الآجر، وليس لأحد بناء من آجر غيره، ولا يسوِّغ الملك لأحد أن يبني بالآجر غيره، ولهذا القصر سور له أربعة أبواب، والملك يهودي يقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل، والخزر مسلمون ونصارى ويهود، وفيهم عبدة أوثان، وأقل الفرق يهود وأكثرهم المسلمون والنصارى، إلا أن الملك وحاشيته من اليهود، والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم، وللملك من الجيش اثنا عشر ألفًا، يجمعون إذا كان لهم حرب أو حزب لهم أمر،

(١) الأُصطخري، أبو إسحق محمد بن إبراهيم الفارسي، المسالك والممالك، بريل، ليدن، ١٩٢٧، ص ٢٦٩.

وأبـواب مال الملك من الأرصاد وعشور التجارة التي كانت توضع علي كل طريق من البر أو البحر.

وللملـك سبعة مـن الحكام اليهـود والنصـارى والمسلمين وأهـل الأوثان، إذا عرضت للناس خصومة قضى فيها هؤلاء ولا يصل من هذه الحوائج إلى الملك شيء منها.

وللخـزر قـرى فيهـا مـزارع مفترشـة يخرجـون في الصيف لزراعتهـا، وتجتمع بعضهـا على النهر، والأخرى علـى الصحاري، وقوتهـم الأرز والأسمـاك، وكما يُذكر أن العسـل والسمن كان ينقل منها إلى البلدان المجاورة لكثرة ما فيها من الأغنام والأبقار[1]. كما أن الروسـ والبلغار كانوا يحملون إليهم الجلـود والخز فتُحمل إلى آفاق أخرى عبرَ أنهار الخزر؛ أما الأوبار والدقيق فإنها تُحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينيا وأذربيجان والروم[2].

وللخـزر عظيم أجلُّ من الملك يسمى (خاقان الخزر)، وهو الـذي يقـوم بتعيين الملك ويقيمـه الشعـب إذا أراد، إذ يخنقونه بحريـرة، حتى إذا قـارب أن ينقطع نفسه قالوا له كم تشتهي أن تعيشـ؟ فيقول كذا سنه. فإن مـات دونها كان هكذا وإلا قُتل إذا بلغ تلك السنة[3].

(١) المقدسي، مصدر سبق، ذكره ص ٦٨.

(٢) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٣) فواز، مدهش، في الرواية الصينية العائدة إلى (تو – طويا) تردمت في سان جوليان، المجلة الآسيوية، ٦/٣/١٩٦٤، ص ٣٣٢.

ولا تصلح الخاقانية إلا في أهل بيت معروفين، وليس للخاقان من أمر البلاد شيء سوى الذي ذكرنا في تعيين الملك. ويُعظَّم الخاقان ويُسجَد له إذا دخل عليه أحد، ولا يصل إليه أحد إلا نفر قليل مثل الملك ومن في طبقته، والملك لا يدخل عليه إلا في حادثة، فإذا دخل عليه تمرغ في التراب وسجد ولم يقم إلا أن يؤذن له. ولا يخرج الخاقان إلا لحادثة تلمُّ بالبلاد، أو أمر عظيم يحزُبها، فإذا قابله عدوٌّ انصرف عنه ولم يقاتله تعظيمًا له. ويُدفن الخاقان بعد موته في مقبرة خاصة، ولن يمر بقبره أحد إلا ترجل وسجد، ولن يركب حتى يغيب عن قبره، وبلغ من طاعتهم له أن أحدهم ربما يجب عليه القتل فيأمره أن يقتل نفسه فينصرف إلى بيته ويقتل نفسه هناك، ولا تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهودية ويسكن في أرفع مكان في البلاد، وتُضرب فوق بيته قبة من ذهب[1].

يقول ابن فضلان: «أما فيما يخص ملك الخزر الذي يلقب بالخاقان فهو يظهر للجمهور مرة كل أربعة أشهر، ويطلق عليه اسم الخاقان العظيم. أما مساعده فيطلق عليه خاقان بك، وهو الذي يقود الجيوش ويموِّنها ويدير أمور الدولة ويظهر أمام الجمهور، وهو القائد في الحروب، ويُطاع من قبل ملوك

(١) دنلوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥.

جيرانه، ثم هو يمثل أمام الخاقان يوميًّا في احترام وتواضع وهو حافي القدمين يحمل في يده عصا من الخشب، وعندما يدخل على الخاقان ينحني أمامه ويشعل العصا ولا يرفع رأسه حتى تحترق تمامًا، ويجلس إلى يمين الخاقان، ثم يليه رجلٌ يطلق عليه[1] (كندر خاقان)، ثم يليه رجل آخر يدعى (جاويش غر خاقان). ومن عادات الخاقان العظيم أن لا تكون له علاقات اجتماعية مع الشعب، ولا يتكلم معهم، ولا يسمح لأحد بالدخول سوى الذين ذكرناهم.

أما سلطة اعتقال الناس وإطلاق سراحهم وفرض العقوبات وحكم البلاد فقد كانت من اختصاص مساعده (الخاقان بك)، ومن عادات الخزر أنهم إذا مات الخاقان العظيم يُشيد له مبنى عظيم يحوي عشرين حجرة، وتحفر في كل منها مقبرة له، وتفتت أحجار حتى تصبح مسحوقًا يُنثر على الأرضية ويغطى بالقار، ويجري تحت المبنى نهر كبير تتدفق مياهه بسرعة، ويحولون ماء النهر إلى فوق القبر ويقولون إنما يفعلون هذا لئلا يصل إلى القبر شيطان أو إنسان أو دودة أو أي كائنات زاحفة، وبعد أن يتم دفن الملك تضرب أعناق من دفنوه حتى لا يعرف أحد في أي حجرة يقع قبره،

(١) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩.

ويطلـق على القبر اسم الجنة. ولهم في ذلـك مأثور: «إنه دخل الجنة»، وكل الحجرات مكسوة بقماش مقصَّب يتخلله نسيج من خيوط الذهب[1].

واعتـاد الملك أن يكون له خمسٌ وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه يأخذها طوعًا أو كرهًا، وله مـن الجواري والسـراري لفراشه ستون ما منهـن إلا فائقة الجمال، وكل واحدة منهن في قصر مُفرد له قبة مغشاة بالساج، وحـول كل قبة مضرب، ولكل واحـدة منهن خادم يحجبها، فإذا أراد أن يطـأ بعضهن بعـث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها فـي أسـرع من لمح البصر حتـى يجعلها في فراشـه، ويقف علآ باب قبة الملك، فإذا وطأها أخذها بيدها وانصرف[2].

وإذا ركـب الملك الكبـير ركبت سائر الجيوش لركوبه، ويكون بينه وبين الموكب مسافة ميل فلا يراه أحد من رعيته إلاَّ خـرَّ على وجهه ساجدًا، ولا يرفـع رأسه حتى يجوزه، ومدة ملكـه أربعون سنة إذا جاوزه يومًا قتلته الرعية، وقالـوا: «هذا نقص عقله واضطرب رأيه»[3].

وللملك مدينة كبيرة على ضفتي نهر آتل (الفولغا) يعيش المسلمون على إحدى الضفتين ويعيش على الضفة الأخرى الملك

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٣ – ١٧٥.

(٢) كيسستلر مصدر سبق ذكره ص ١٤٨.

(٣) ابن العبري مصدر سبق ذكره ص ٥٨.

وحاشيته، ويتولى حكم المسلمين موظف مسلم من موظفي الملك، يسهر على قضايا المسلمين المقيمين في عاصمة الخزر وكذلك قضايا التجار الوافدين إليها من الخارج، ولا يسمح لغيره في التدخل في أمورهم، أو الفصل في قضاياهم».

وينتهي تقرير ابن فضلان بقوله: «وإن الخزر وملكهم هم جميعًا من اليهود، ويخضع له البلغار وجميع جيرانهم ويبجلونه ويطيعونه طاعة عمياء، ويري البعض أنّ يأجوج ومأجوج هم من الخزر، وفي الأقاليم تمتد ضياعهم والمساحات المزروعة على نحو متصل لمسافة تزيد على ستين أو سبعين ميلًا، وكما أن لهم مزارع كروم منتشرة وبساتين من الفواكه والحدائق تكسو الريف الممتد من داربند إلى سرير[1]. وكانت التجارة الخارجية المصدر الرئيس لدخل الخزانة الملكية، وقد أشار ابن فضلان إلى حجم القوافل التي تزرع طريقها بين آسيا الوسطى وإقليم الفولغا أورال.

ونذكر أن القافلة التي انضمت إليها بعثته في جرجان كانت من خمسة آلاف رجل، وثلاثة آلاف دابة، وإن هذا الحجم الكبير من القوافل لطالما كانت تنتقل من مكان إلى آخر محملة بالسلع من المنسوجات والفواكه المجففة والعسل والشموع

(١) ابن فضلان مصدر سبق ذكره ص ٢١٧ – ص ٢٢٢.

والتوابل، وكان هناك طريق آخر كانت تقطعه هذه القوافل عبر القوقاز إلى أرمينيا وجورجيا وفارس وبيزنطة، والطريق الثالث الذي كان ينحدر من الروس عبر الفولغا إلى شواطئ بحر الخزر الشرقية حيث الفراء الثمينة التي كان يتهافت على شرائها صفوة من المسلمين، كما كانت تلك الأساطيل تحمل الرقيق من الشمال لبيعهم في سوق العاصمة آتل، ويذكر أن حاكم الخزر كان يُعشِّر جميع السلع المارة في بلاده بما في ذلك الرقيق[1].

كما أن البلغار والمجريين والبورتا كانوا جميعًا يدفعون الضريبة المفروضة على البضائع التي ترد إلى بلاد الخزر، مما جعل هذا البلد أكثر ازدهارًا من غيرها، مما ساعد على نمو قوتها العسكرية وما أضفته من هيبة ووقار على رجالها من محصلي الضرائب وموظفي الجمارك. وبصرف النظر عن الأقاليم الخصبة في الجنوب بكرومها وبساتينها إذ يسد ذلك ما في البلاد من نقص في مواردها الطبيعية.

ويعد غراء السمك من المحاصيل المهمة التي كانت تُصدر إلى بلدان العالم، والتي كانت في متناول يد التجار العرب، حيث غالبًا ما تُشاهد هذه البضائع والسلع في أسواق بغداد وسامراء، مما يدلل على أن بلاد الخزر لم تكن معزولة عن

(١) الأندلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.

العالم المتمدن؛ بل كانت بلادًا متحررة إذا ما قورنت بجيرانها، وعلى الرغم من تفاعل هذه الشعوب مع الثقافات والأديان للبلاد التي تتعامل معها فإنها ظلت تدافع عن استقلالها ضد القوتين العظيمتين للدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، وهذا ما سنراه في الفصول القادمة سببًا للتطور المفاجئ والمثير الذي أرسى اليهودية دينًا رسميًّا للدولة[1].

ب – الحالة السياسية

إن ما توافر لدينا من معلومات عن القوة الاقتصادية للخزر يعطينا بلا شك وضوحًا بأنها السبب الرئيس في تأدية هذا الشعوب أدوارًا سياسية مهمة في بلاد الخزر وما جاورها، كما كان ذلك مؤهلًا لها للاستقلال وعدم التبعية لغيرها من الدول المجاورة، فنرى الروايات التاريخية تشير إلى حضور الدور السياسي لإمبراطورية الخزر بين القوى الأخرى الموجودة في العالم المجاور مثل الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، كما أن الوقائع التاريخية التي تسجل حدوث سفارات متبادلة مع الدول المجاورة خير دليل على وجود الدور السياسي لإمبراطورية الخزر عندما يخبرنا المؤرخ ثيوخيلاكت أن وقائع لهذه السفارات قد حصلت بحلول عام ٥٩٨م مع أقاليم آسيا وأوروبا[2].

---

(١) الأصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣. وابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩.
(٢) الساداتي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ – ٦٣.

وكان لانهيار إمبراطورية الهُون فراغًا كبيرًا في ميدان القوى الموجودة في شرق أوروبا، مما ساعد هو الآخر استغلال الخزر لهذه الفرصة التي وفرت لهم سهولة الغزو للأقاليم الغنية عبر القوقاز، مثل جورجيا وأرمينيا؛ إذ أصبحتا خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي السلطة المهيمنة على المنطقة، وبين قبائل القوقاز مثل السابير والساجور والسامندر والبلان جار، لقد خضع هؤلاء جميعًا لحكم الخزر وامتُصت خيراتهم، ويُذكر أن البلغار الأقوياء قاموا بمقاومة عنيفة ضد هذه الهيمنة ولكنهم لقوا المصير نفسه؛ فهُزموا هزيمة ساحقة حوالي عام ٦٤١م[١].

وكان هناك اتحاد ضم قبائل توحدت على يد حاكم الخزر (الخاقان) استمر اتحادها أكثر من قرن من الزمان، إلا أنه تفكك دون أن يترك أثرًا يُذكر، ثم إن الخزر قد استفادوا من أفول سلطة الأتراك في منتصف القرن السابع الميلادي؛ مما ساعدهم على أن يأخذوا دور الأتراك في حكم الأقاليم الشمالية، ويؤيد هذا ما ورد أن الملك الفارسي (خسرو أنوشروان) خصص ثلاثة عروش ذهبية في قصره لضيوف أباطرة ثلاث هم: إمبراطور بيزنطة، وإمبراطور الصين، وإمبراطور الخزر[٢][٣].

---

(١) اليعقوبي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.

(2) Bernad Lewis the jews of Islam London 1984. P.61

(٣) وهناك مناظرة جرت في حقبة سبقت عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحدث فيها ملك الحيرة النعمان بن المنذر عن كسرى أنوشروان، وقد أعلن الملك الفارسي بأنه =

إلاّ أن هنـاك مفارقـةً تاريخيـةً تتحدث عـن زحف الخزر نحـو الفرس، وإن الإمبراطور فيروز قد بنى دفاعات من الحجر لحماية بلاده من الهجمات القادمة من الشمال، كما أن الأخبار ساقـت إلينـا اتصال الخـزر بالإمبراطور الإغريقـي هرقل؛ إذ تذكـر المصـادر الإغريقيـة والأرمنيـة والجورجية أنـه في عام ٦٢٧م كان هرقـل في مدينة تفليس في إحـدى حملاته ضد بلاد فارس؛ إذ استقبله الخزر بأربعين ألف رجل أُوقفوا تحت خدمته للانقضاض علـى الأراضي الفارسية، إلاَّ أن حلول فصل الشتاء ساعد الفرس على صد هذا التحالف العسكري الذي اضطر إلى أن يتراجـع وينسحب، بل إن مصادر أخرى تقول: إن الانسحاب كان بسبـب الأسلوب الإغريقي البطـيء في إدارة دفة القتال، ومع ذلـك فإن هرقل عـاود زحفه حتى وصل إلـى مسافة ثلاثة أيام من (المدائن) العاصمة الفارسية[1].

ويقـول نصـر شمـالي إن في مناطـق القوقـاز وفي الرقعة الممتـدة بين نهـري الفولغا والـدون وحتى شواطـئ بحر الخزر

= يـرى أن الإغريق والهنـود والصينيين والترك والخزر أرقى مـن العرب، وأوضح أن الخـزر، كانت لهم مؤسسات ومنظمات خاصة للموكهـم، ويلاحظ هنا أن الخزر قد جرى تصنيفهم مع الدول الشرقية العظمى، وتذكر الرواية أيضًا احتفاظ أنوشروان بالعروش الذهبية الثلاثة المخصصة للوك الـروم والصين والخزر. راجع الطبري، مصدر سبق ذكره، ص٩١.

(١) لانجـر، وليام، موسوعة تاريخ العالم، ج ٢، أشرف على الترجمة د. محمد مصطفى زيادة، مكتب النهضة المصرية ١٩٥٢ م ص ٤٨٣.

والبحـر الأسود كانـت هناك مملكة قويـة ومنتعشة عاشت مدة طويلـة من الزمـن، وقـد أدت أدوارًا سياسية مهمـة بين القوى المحيطة في المنطقة[1].

ويذكر لنـا المسعودي في رواية مفادهـا أن الملك شيرازويه قد سـال أحد رجالـه إذا كان يروي الخدعـة الحربية الشهيرة التـي قام بهـا جده أرداشير بن بابك في حربـه مع ملك الخزر، وقـد قـام الآخر بروايتها كاملـة، مما يدلل لنـا أن الخزر كانوا موجوديـن في زمن أرداشـير، أي بالمدة المحصـورة بين ٢٢٦ – ٢٤٠ م، وإن لهـم آنـذاك كيانًا، وقد كانـوا بالفعل قوة معادلة أو منافسـة للقوى الموجودة في المنطقة مثل الفارسية كما ورد آنفًا، ولـو أن المسعودي تفرد بهذه الرواية إلا أنـه لن يُستبعد أن يكون للخزر وجود في ذلك الحين.

ثـم إن الطبري قـد أورد لنا أخبـارًا تأخـرت أحداثها بما يقارب قرنين من الزمن دللت على وجود الخزر، وهي عندما بنى الإمبراطـور فيروز دفعات من الحجر قـرب (صول) (واللآن) بهدف حماية بلاده من الأمم الشمالية. و يذكر المؤلف الإغريقي برسكوس أن الإمبراطور فيروز قد أرسل في نحو ٤٦٥م رسالة إلى ملك الهون القيداريين[2] (قـون خان) يرغب مسالمته ومحالفته

(١) الشمالي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٢.

(٢) القيداريـون هم قبائل الهون والهياطلة الذين يرتبـط نسبهم بالخزر. راجع دنلوين مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

إلـى آخـر الرواية، وقد ربـط المؤرخون بين هـذه الرواية ورواية المسعودي، مما يدلل لنا على القناعة بوجود الخزر آنذاك[1].

أما برسكوس فإنه يذكر لنا أنه في عام ٤٦٨م التقى السرغور والفرس عند بوابة بحر الخـزر، وهذا المكان قد سبق للفرس أن أوقفوا فيه زحف القيداريين، والرواية هذه تقول بأن هذا الحدث قد كان بالمدة نفسها التي كان يعيشها الإمبراطور فيروز، كما أن اليعقوبـي المتوفى بعد عام ٢٧٨هـ - ٨٩٢م يروي لنا تغلب الخزر على جميـع بلاد أرمينيـا والسفرجـان والسيسجـان التي كانت تسمـى أرمينيا الرابعة التي فتحها ملـك الفرس (قُباز)، وبسط نفوذه على دربند وطبرستان والبلنجر ومدن كثيرة أخرى، وجلب مـن فارسـ أُناسًا أسكنهـم فيها، إلاَّ أن ذلك لم يـدم طويلًا، إذ تغلبت الخزر على فارس فأعادت كل شيء إلى أوله[2].

ومن ناحية أخرى، كان للخزر موقع إستراتيجي، في المدخل الحيـوي للبحـر الأسـود وبحر قزويـن، إذ كانـت هيمنة الخزر ونفوذهـا حاجـزًا يحمـي بيزنطة من غـارات البرابـرة الذين ينحدرون مـن السهوب الشماليـة كالبلغار والمجريـين والبشنج والفايغنـج والروس وحتى العرب -الذيـن كانت جيوشهم تطول

(١) المسعودي، مصدر سبق ذكره، ص.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.

شرقي البلاد وغربها- قد وجدوا صعوبة في اقتحام هذه المناطق الوعرة التي لو حصل لها ذلك لكان مفتاحًا لأوروبا الشرقية بأكملها[1].

وكما أنّ الخزر قد ازدادوا قوة بتحالفهم مع البيزنطيين عندما تزوج قسطنطين الخامس من أميرة خزرية سنة ١٣٧م والتي أصبح ابنها (ليو رابع) الذي اشتهر بـ (ليو الخزري) إمبراطورًا بعد أبيه[2].

وقد أثبتت التقنيات الأثرية أن مملكة الخزر كانت محاطة بسلسلة من الحصون لحماية حدودها الشمالية المواجهة للسهوب المفتوحة وعبر السهول المنبسطة عند نهري الدوندز والدون وحتى نهر الفولغا، كما كان لجبال القوقاز أثرها في حماية المملكة من الجنوب، وكذلك البحر الأسود وبحر الخزر وبحر قزوين من الجهات الأخرى؛ إلاّ أن هذه التحصينات يتذبذب فائدتها تبعًا للظروف الداخلية السياسية وتبعًا لعلاقة المملكة مع القبائل الأخرى التي تسكن أطرافها كمناطق القوقاز وبحر آرال وجبال آرال ومدينة كييف والسهول الأوكرانية[3].

---

(١) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢) لانجر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨٤.

ج – الحالة الدينية

قبل ظهور الإسلام وانتشاره في العالم على أيدي المسلمين الفاتحين أو الدعاة، كانت الديانات السائدة تتعدد وتختلف من بلد إلى آخر ومن شعب لشعب آخر، فهناك النصرانية واليهودية، وهناك الوثنية التي تتعدد اتجاهاتها من الأصنام إلى الظواهر الكونية والأنواء؛ بل تعدى ذلك إلى لعبادة الحيوانات أو الجمادات والأشخاص، وانتشر الإسلام بتوفيق من الله لدعاته وحملة ألويته وتعاليمه؛ إلاّ أن هناك أماكن تأخر وصول الإسلام إليها بسبب أو لآخر.

وقد أوردنا أن قبائل الخزر كانت تقف حائلاً دون عبور المسلمين إلى ما وراء تلك المناطق، أو بالأحرى الوصول إلى أركان تلك المملكة الخزرية وتبديد ظلماتها، وما كانت عليها من العقائد الدينية بعقيدة الإسلام؛ لتنعم به كما حدث لأرجاءٍ كبيرةٍ من المعمورة؛ ففي الأيام التي تنعم بها بلاد الأندلس وأرجاء إفريقيا وأرض فارس وما جاورها بنعمة الدين الجديد الذي جاء للعالم يحمل الحرية ووحدة المعتقد ونزاهته من المعتقدات الجاهلية، وإبدال حياة العبودية بحياة الحرية والتعايش واحترام حقوق الإنسان؛ بل السمو بها فوق ما لم يكن بحسبان البشر أنفسهم... كانت هناك معتقدات لدى

قبائل الخـزر يدينون بها شعوبًا وحكامًا، وقد أوردت إلينا بعض المصـادر التاريخية أن الخزر كانـوا قبائل وثنية يعبدون قضيب الذكر إذ يعدونه رمزًا لآلهة الخصب[1].

وكانـوا يعظمون ملوكهم ويسجدون لهـم، وأن القدسية التي يفضونها عليهـم تبقى حتى بعد وفاتهم، ويذكـر لنا ابن فضلان أن الملك عندما يموت يشيد له مبنى عظيم يحوي عشرين غرفة، وتحفـر في كل غرفة منهـا مقبرة له، وتفتت أحجـار حتى تصبح مسحوقًا ينثر على الأرض ويغطى بالقار، ويجري تحت المبنى نهر كبير تتدفق مياهه بسرعة، ويحولون ماء النهر فوق القبر ويقولون إنهـم يعملون هـذا حتى لا يستطيـع أن يصل إلـى القبر شيطان أو إنسـان أو دودة أو أي كائنـات زاحفة، وبعـد أن يتم دفن الملك تضرب أعناق من دفنوه حتى لا يُعرف قبره ويطلق عليه الجنة[2].

د – الحالة الاقتصادية

يقول المسعـودي: «وتتكاثر في بلاد الخـزر قطعان الأغنام وتنتج من العسل كمية وفيرة، ويعيش فيها العديد من اليهود»[3].

كان الموقـع الجغرافي لبلاد الخـزر يؤدي دورًا مهمًّا في قوة الحالـة الاقتصادية لسكان وشعوب المنطقـة، حيث وفرة المياه،

---

(١) الأصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٠.

(٢) المسعودي، أبـو الحسـن علي بن الحسن بن الحسن بن علـي، التنبيه والإشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ١٦٨.

(٣) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص١١٢.

وخصوبة الأرض، واعتدال المناخ جعلت للزراعة الحظ الأوفر للاقتصاد الخزري إن صح التعبير. يقول الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: «يتفرع من نهر آسل نيف و سبعون نهرًا، ويبقى عمود النهر يجري إلى بحر الخزر، ويقال إن هذه المياه المفترقة إذا تجمعت تزيد على مياه جيحان ونهر بلخ حيث تعمر الأشجار والكروم أراضي الخزر بأعداد لا تحصى، كما أن التجار يركبون بأمتعتهم مياه هذا النهر ويسافرون إلى جرجان وغيرها من البلدان الساحلية ثم يرجعون إلى آسل، ويركبون في مراكب خفاف مستعملين النهر نفسه حتى يصعدون فيه إلى البلغار، ثم ينحدرون في أحد شعبه حتى يصلوا إلى بحر بنطس، وهناك عدد كبير من عيون الماء التي تساعد على تربية الأشجار والدواب حيث الأراضي الشاسعة التي تسرح فيها المواشي للتسمين. كما أن أهل تلك الأماكن يكثرون من صيد السمك الذي يُعد من أهم وجبات طعامهم، كما أنهم يدخرونه ويبيعونه إلى البلدان المجاورة[1].

ويقول البلاذري: «وللخزر مدينة تسمى سمندر، فيما بينها وبين باب الأبواب، لها بساتين كثيرة، ويقال: إنها تشتمل على نحو أربعة آلاف كرم إلى حد مدينة السرير، والغالب على أثمارها الأعناب، ويرتفع من بلاد الخزر العسل والفراء وأنواع

(١) الإدريسي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣١ – ٨٣٧.

الجلود والشمع، ويُحمل إليها الخزُّ والأوبار وأنواع الملابس وأنواع من الدواب التي تُحمل إليها في السفن، ويقصد بلاد الخزر خلقٌ كثير من النواحي يقيمون بها للصيد، ويأتي إليهم خلقٌ من الأتراك يقيمون في هذه البلاد ويتخذون منها مراعي لمواشيهم قرب العيون»[1].

لقد عاش شعب الخزر حياة تداخلت فيها أساليب العيش بين البداوة والحضارة، فهم قبائل محاربون رحل، وبالوقت نفسه نراهم من الفلاحين ومربي الماشية وصيادي السمك وزرَّاع العنب، وتجارًا نشيطين وحرفيين مهرة. وقد كشف علماء الآثار السوفييت عن أدلة تثبت وجود حضارة متقدمة نوعًا ما، إذ عثروا على آثار قرى تنساح أميالًا عدة، فيها منازل متصلة بأروقة تؤدي إلى سقائف فسيحة للماشية وحظائر الغنم، وأخرى للجياد، وهناك من المحاريث التي تجرها الثيران ما يدل على تقدم في الصناعة، وكما يتضح من المصنوعات الصغيرة التي وجدت مثل الأبازيم والأشابك والسروج والأواني المزخرفة، وتدل آثار بيوتهم على أن هؤلاء الشعوب يتحركون وراء العيش؛ إذ يتركون بيوتهم المبنية ليسكنوا في السهوب التي يقيمون فيها خيامهم حول حقول القمح والكروم التابعة لهم، كما أن قوة سلطانهم قد جعلتهم يفرضون الجزية على القبائل المختلفة والأقاليم الشاسعة الواقعة

(١) البلاذري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨ – ١٣٥.

بين القوقاز وبحر آرال وجبال أورال ومدينة كييف والسهول الأوكرانية، وقد خضعت لسيادة الخزر شعوب البلغار والبورتا والغز والمجريين والقوت والإغريق والقبائل السقلبية، وهذا كله أعطى للحياة الاقتصادية نشاطًا كبيرًا ميزهم عن الشعوب الأخرى، وكان ملك البلغار يدفع الجزية السنوية إلى ملك الجزر بحدود خمسة آلاف (فراء سمور)، وهذا له قيمة باهظة، مما يجعل هذه الجزية أتاوة سخية يجمعها الخزر، ويمتد عندهم الريف لمسافة تزيد على ستين أو سبعين ميلاً، تكسوه حدائق ومزارع تنتشر حتى تصل إلى مدينة سرير.

ونظرًا لخصوبة أرضهم ووفرة محاصيلها فإن استغلالها بصورة مستمرة يعطي سكانها وافرًا من الغلة والمحاصيل[1]، ومع ذلك كله فإن التجارة الداخلية تُعدُ مصدرًا رئيسًا لدخل الخزانة الخزرية، وقد أشار ابن فضلان إلى حجم قوافل التجارة التي تقطع طريقها بين آسيا الوسطى وإقليم الفولغا تحمل معها السلع والمنسوجات والفواكه المجففة والعسل والشمع والتوابل، فضلًا عما يقوم به التجار الروس من نشاط في شواطئ بحر الخزر الشرقية ببيع أنواع الفراء الثمينة والرقيق والبضائع الأخرى، مما دفع حاكم الخزر إلى أن يفرض ضريبة قدرها

(١) ابن فضلان، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥.

عشـرة بالمئة من قيمة هذه السلع المـارة في بلاده، وينطبق ذلك على التجار البلغار والمجريين والبورتا[١].

ويذكر الأصطخري قائلًا: «إن غراء السمك كان المحصول المحلي الوحيد الذي يُصدَّر من بلاد الخزر»[٢]، ومن جهة أخرى تشير مصادر عديدة إلى سلع خزرية شوهدت في بغداد، وكذلك وجـود تجار خـزر في القسطنطينية والإسكندريـة بل في جهات نائيـة مثـل سامراء وعانة، ويبـدو أن للفنون والحـرف والأزياء الرفيعـة المبتكرة حظها في النشـاط الاقتصادي الخزري، حيث تذكر المصـادر أن الامبراطور قسطنطين الخامس عندما تزوج ابنة خاقان الحرير أحضرت مع مهرها ثوبًا رائعًا بلغ من إعجاب الحاشيـة البيزنطية أن اتخـذه أعضاؤها رداءً طقسيًّا، ويضيف العلامة توينبي بأن الأميرة الخزرية التي تزوجها حاكم أرمينيا المسلم قـد تضمن موكبها عشر خيام رُكبـت على عجلات، وقد صنعـت مـن أرقى أنـواع الحرير، ولهـا أبواب مكسـوة بالذهب والفضـة، وأرضيتها مكسوة بفراء السمور، وكان معها من الآنية المزينة ما يدل على تقدم الصناعة والفن لدى شعوب الخزر[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(٢) الأصطخري، مصدر سبق ذكره، ص٢٧٥.

(٣) كيستلر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ - ٥٤.

وكانت تُحمل الفنون الخزرية نحو أقطار الشمال وبلاد فارس والبلدان المجاورة، وقد وصف العلماء الروس مكتشفات كثيرة من هذا القبيل صنعت في ورش الخزر التي اكتشفت أطلالها على مقربة من الحصن الخزري القديم.

وكان الخاقان يضع بنفسه مفتشين للإشراف على صناعة المنتجات من الذهب والفضة والحديد والنحاس. كذلك كانت الأسواق والتجارة ومواطن صيد السمك تخضع لمراقبته أيضًا وما يرد إلى البلاد من سلعٍ وبضائع مختلفة.

واستنادًا لما تقدم لدينا فإن الحالة الاقتصادية للخزر كانت متميزة عن غيرهم من الشعوب المجاورة، مما ساعدت المملكة بصورة عامة أن تفرض لنفسها موقفًا سياسيًا وعسكريًا لعدة قرون[1].

(١) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة لبنان، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٩٨.